صناعة السيوف الإسلامية

فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى

١ — مواطن الحديد

إن ماوصلنا من المراجع العربية القديمة عن المعادن والحديد منها بصفة خاصة قليل جداً . ومعظم ماعرفه المسلمون القدامى عن صناعة هذا المعدن الهام نقلوه عن الهنود والفرس .

ولم نعثر على رسالة تناول فيها مؤلفها الكلام على صناعة الحديد أو استخدامه عند العرب القدامى قبل القرن التاسع الميلادى . وقد يكون ما كتبه الكندى الفيلسوف العربى أقدم ما وصلنا فى هذا الموضوع (١) .

بدأ الكندى رسالته بالكلام على أنواع الحديد التى تصنع منها السيوف فقال : إنها إما أن تصنع من الحديد الخام الذى يستخرج من المناجم أو من الحديد المصنوع الذى تضاف إليه مواد أخرى فى أثناء الصهر . ثم قال ان الحديد المستخرج من باطن الأرض ينقسم إلى نوعين :

١ — حديد الشابرقانى وهو الحديد المذكر الصلب القابل للسقى .

٢ — حديد النرماهن وهو الحديد المؤنث الرخو الذى لا يقبل السقى وقد تطبع بعض السيوف من النوعين المركبين معاً .

وعرف الكندى الفولاذ (٢) بأنه ليس بمعدنى أى لا يستخرج على

---

(١) مخطوطة مكتبة ليدن بهولنده رقم ٢٨٧ Arab . راجع مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد ١٤ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٢ ص ١ — ٣٦ بعنوان السيوف وأجناسها للكندى . نشر المخطوطة القائمقام عبد الرحمن زكى .

(٢) الفولاذ هو الحديد المصفى من خبثه وأصل الكلمة بالفارسية بولاد .

طبيعته من المنجم وقال عنه أنه هو الذى يصفى بخلط بعض المواد فى أثناء عملية السبك فتشتد رخاوته ويصير متيناًلدناً يقبل السقى ويظهر على نصلهفرنده[1].

وقد اتفق أبو الريحان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) العالم الذى تبحر فى علوم الهند وفارس مع رأى الكندى وأشار إليه فيما كتبه عن الحديد [2] ولم يضف جديداً فى هذا الموضوع .

كذلك معاصره الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) لم يضف على تلك المعلومات شيئاً قليلا أو كثيراً . فقد ذكر « ان الحديد ثلاثة أصناف شابورقان ونرماهن وفولاذ مصنوع » [3] .

وذكر ابن البيطار (توفى عام ١٢٤٨ م) من علماء الأعشاب أن « للحديد معادن كثيرة وتتفاضل أجناسه . فمنه ما هو رخو ومنه ما إذا ألقيت عليه الأدوية صلبته وزادت فى قوته . ومنه ما إذا سقى الماء زادت صلابته وحدته . ومنه ما إذا لم يسق الماء كان أحدمنه . وأهل الصناعات كلها يحتاجون إليه ولا غنى للناس عنه ... » [4] .

وكنا نتوقع تقدم إلمام المسلمين بالحديد بعد ذلك . لكننا رأينا القلقشندى المؤرخ المصرى (١٣٥٥ — ١٤١٨) فى أخريات القرن الرابع عشرعند كلامه على نوعى حديد السيف يكرر الآراء القديمة التى ذكرها الكندى من قبله بمئات السنين وهو فى ذلك يقول :

« السيف إن كان من حديد ذكر وهو المعبر عنه بالفولاذ . قيل سيف فولاذ . وإن كان من حديد أنثى وهو المعبر عنه فى زماننا (القلقشندى) بالحديد قيل سيف أنيث . فان كان متنه من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما فى سيوف الفرنجة قيل سيف مذكر . ويقال أن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض

---

(١) الفرند فارسى معرب وهو جوهر السيف وماؤه . الجواليقى فى المعرب ص٢٤٣.

(٢) أبو الريحان البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر . ص ٢٤٨ — ٢٥٨ . مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدراباد الدكن . عام ١٣٥٥ هـ .

(٣) ابن سينا : القانون فى الطب . ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . ج ٢ ص ١٣ . طبعة مصر

وبردت صارت حديداً . وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفاً . فتجىء فى غاية الحسن والمضاء » [1] .

هذا أهم ما وصل إلينا عن الحديد فى مؤلفات علماء المسلمين . وهى معلومات لم تضف شيئاً جديداً إلى علم المعادن . وذلك بالرغم من وجود واستغلال مناجم كثيرة للحديد فى أنحاء العالم الإسلامى سيأتى الكلام عليها .

لقد كانت الهند أهم أقطار الشرق فى استنباط الحديد وقد ذكر فى مواضع شتى من ملاحمها الرائعة . واستخدمه السلاحون الهنود منذ القدم فى عمل النصال الجيدة . وقد ذكر البيرونى أنه لا توجد أمة أبصر بأنواع السيوف من الهند [2].

كذلك أشار الأدريسى (حوالى ١٠٩٩ — ١١٧٣ م) إلى مضاء سيوف الهند وشهرتها بجودة الصقل لوجود الأنك [3] الذى استأثرت « قلعة » بإنتاجه كما قال أن الهنود يحسنون صنعه وتركيب أخلاط الأدوية التى يسبك بها الحديد اللين . وصناعهم يجيدونها فضلا على غيرهم من الأمم . وذكر الأدريسى أيضاً أن أنواع الحديد السندى والسرنديبى والبينمانى (البيلمانى) [4] تتفاضل كلها بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وأحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء . وأنه لا يوجد شىء أمضى من الحديد الهندى . وهو شىء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته [5] .

والآن وقد تكلمنا عن حديد السيوف الإسلامية ننتقل إلى مواطنه الهامة فى أنحاء الشرق الإسلامى .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى . ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر . ص ٢٥٤ .

(٣) الأنك فارسى معرب وهو معدن الرصاص الأبيض المعروف إلى الآن فى الهند باسم « رانج » والأنك والرانج شىء واحد . وتقع بلاد الرانج حول مصب اروادى فى بورما . انظر أيضاً ابن البيطار : جامع مفردات لأدوية . ج ٢ ص : ١٤ .

(٤) كانت بيلمان مركزاً لصناعة السيوف البيلمانية تقع على ملتقى حدود السند والهند والقول بأنها من أرض اليمن لا يقوم على سند . البلاذرى ص ٤٤٠ و ٤٤٢ ونقلها ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤١ .

انظر أيضاً كتاب السلاح عند العرب لمؤلفه Schwarzlose ص ١٣٠ .

(٥) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٠٨ — ١٠٩ . ليدن عام ١٨٦٨ .

لم تخل كتب الرحالة والجغرافيين من المسلمين من ذكر مناجم المعادن وأخصها الحديد فى البلاد الإسلامية .

فقد ذكر المقدسى وقد عاش فى القرن العاشر أنه على مقربة من شاهق [1] كانت توجد مناجم الحديد . التى اشتهر معدنها فى طبع النصال الجيدة [2] وإلى الجنوب الشرقى من تلك البلدة على حدود ذرابجرد [3] عند قطروه استغلت مناجم الحديد الطيب . وذكر الاصطخرى الذى عاش فى حوالى القرن العاشر (م) أنه كان بالقرب من ماراثمنده وميناق مناجم الحديد الذى كانت تصنع منه الأدوات الحديدية وتصدر إلى نواحى خراسان وبغداد [4] .

وأشار ياقوت والمقدسى إلى ثروة صقلية فى الحديد الذى كان يصدر إلى الهند لصنع الآلات البديعة فى خلال القرنين الثامن والتاسع [5] كما ذكر اليعقوبى أنه فيما بين القرنين التاسع والعاشر كانت تستغل مناجم الحديد فى شمال إفريقية [6] كما اشتهرت بلدة مجانة على الحدود بين تونس والجزائر بمناجم الفضة والحديد والرصاص والأنتيمون وكانت تنقل الخامة إلى صوصة مرفأ المغرب [7] .

وفى جبل نقم القريب من صنعاء فى اليمن كان يوجد الذهب الجيد والحديد. وكانت تصنع منه السيوف على أيام دولة حمير وقد سميت بالسيوف البرعشية لأنها صنعت فى زمن برعشية الملك المشهور .

ومع ذلك فقد كان يرد الحديد الذى استعمل فى صناعة السيوف والسلاح من خارج شبه الجزيرة العربية . كان يجىء معظمه من الهند وتحمله السفن إلى

---

(١) شاهق بلدة فى إقليم فارس .

(٢) Le Strange, G : The Lands of the Eastern Caliphate p. 278 .

(٣) إحدى كور فارس . ياقوت : معجم البلدان . جـ ٤ ص ٤٦ .

(٤) الاصطخرى : مسالك الممالك . ص ٣٣٦ و ٣٤٨ . ليدن عام ١٩٢٧ . انظر أيضاً معجم البلدان ص ٣٩٥ و ٤٢٥ و ٧١٠ طبعة أوربا .

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٠١ والمقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٦) اليعقوبى : ص ٧٤ والبلاذرى ص ٦٦ .

(٧) Revue des Etudes Islamiques. Vol. 1935. p. 303.

مرافىء البحرين وعمان واليمن . ونشأت فى تلك الجهات المراكز الهامة لتوزيعه على صناع السلاح فى شبه الجزيرة .

ومن المحتمل أن يكون البدو قد اهتدوا إلى معرفة مواقع مناجم الحديد القديمة فى شبه جزيرة سينا وانهم كانوا ينقلونه إلى صنعاء حيث تطبع نصال السيوف والمدى [1] .

وكان بالشام وعلى مقربة من بيروت [2] وفى كرمان [3] وكابل [4] مناجم للحديد . كما وجد فى القوقاز وأرمينية .

وفى آسيا الصغرى ورث الترك مناجم الحديد التى كانت للبيزنطيين إذ أن المعروف أن سلسلة جبال طوروس غنية بخامة الحديد، وقد توافر فى علاية وأدنة وأماكسيا فى كيليكيا العليا وجالاطيا [5] .

تلك هى معظم مواطن الحديد فى الشرق الإسلامى التى اتفقت عليها المراجع العربية . ولقد اندثرت معظمها بسبب الإهمال أو سوء الاستغلال . ولايخفى أنه من الصعب التكهن بمصدر خامة الحديد للسيوف القليلة التى وصلت إلينا مما يمكن نسبتها إلى العصور الإسلامية الأولى .

الصين والهند

وقد عرف الصينيون استخدام الحديد منذ القدم وذكر العلامة برتون أنه فى عهد أسرة هان (Han) كانوا ينصبون كبار صناع الحديد على نواحى مقاطعة لى أنج شو القديمة للإشراف على مراكز استغلال الحديد وصناعته [6] .

وقد ذكر ليه ــ تسى المؤلف الصينى والفيلسوف المشهور (Leih-Tze)

---

(١) Boheim : Die Wafferkunde. page 618.

(٢) Revue des Etuaes Islamiques. Vol. 1935. p. 305.

(٣) المقدسى : ص ١٨٤ وابن الفقيه : ص ٢٠٦ والادريسى ص ٢٢ .

(٤) المقدسى : ص ٤٧١ وابن حوقل : ص ٣٢٨ .

(٥) Forbes, R.J. : Metallurgy in Antiquity. p. 386 Leiden. 1950 .

(٦) Burton : The Book of the Sword. p. 113.

حوالى عام ٤٠٠ ق . م . المعلومات الدقيقة عن الصلب ووصف عملية طرقه وسقيه [١] وهى فى تفصيلاتها لا تختلف عما آلت إليه فيما بعد .

وجاء فى حديث القلم (Pri-Tan) الذى كتب فى عصر أسرة Ming مينج فيما بين (١٣٦٦ — ١٦٤٤ م) إيضاحات لعملية تحويل الحديد إلى الصلب . وقيل أن ما جاء فيما كتبه جابر بن حيان الكيميائى العربى عن نفس الموضوع لا يختلف كثيراً [٢] .

هذا إلى جانب مناجم الحديد القديمةفى نواحى شانسى وشيليلى فى أقاليم (هو)حيثاستغلت خامات الحديدوالفحم بوفرةومازالت باقيةعلىحالها إلى اليوم

وكانت الحكومة تتولى الإشراف على مناجم الحديد ومصانعه حوالى القرن السابع (ق . م) ذلك لأن الخامة كانت تعود بدخل وفير إلى خزانتها [٣] وكان حديد الصين يصدر إلى غرب آسيا لكنا لا نستطيع التأكد مما إذا كانت صناعته فيها فاقت زميلتها فى الهند .

وتشير بعض المراجع القديمة إلى تصدير الحديد من الصين إلى الشرق الرومانى ويقول بلينى (توفى عام ٧٩ م) أن حديد الصين كان أجود الأنواع التى عرفت فى الأسواق الرومانية . وكان يليه الحديد المستورد من بارثيا [٤] .

ويعارض هذا الرأىوارمنجتونالعالم الإنجليزى قائلا: إنهذا الحديد الذى يكلم عنه بلينى إنماجاءمن مملكة شيرا (Chera)فى جنوب الهندوليس من الصين وتلك المملكة كان يقصد إليها الكثير من تجار الإغريق فى الامبراطورية الرومانية [٥] .

---

(١) I bid,

(٢) Sarton, G : Introduction to history scicefone . Vol . I. pp. 532-533.

(٣) O. Jance : Quelques antiquités chinoises d'un caractère Hall statien in the museum of Far Eastern antiquities, Stockholm, Bulletin. No. 2, pp. 182-3. 1930.

(٤) Exomnibus autem generibus, palma Serico perro est", Pliny, Historia Naturalis, XXXIV, 14(41),145, quoted in F.Hirth, China and the Roman Orient, loc., p. 225-116, footnote 2.

(٥) Warmington, E.H. : The Commerce of the Roman Empire and India, loc. cit. pp. 157-158.

وقد ذكر ابن المتوج عندما تكلم على فنار الإسكندرية « أنه كان عليه مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ... » (١) .

والمتفق عليـــه عند علماء الآثار القديمة أن تاريخ بناء الفـــنار يتقدم حوالى ٣٠٠ سنة عن تاريخ إصدار الحديد من الصين الذى ذكره «بلينى». وقد ظلت شهرة الحديد الصينى فى الأسواق الرومانية على أهميتها إلى العصر العربى بدليل أن ابن خرداذبة فى القرن التاسع الميلادى تكلم عن حديد الصين الجيد الذى كان يصدر من مرفأ لوكينى وهى كانتبجار القديمة المطلة على خليج تونج — كنج .

وبعد مضى ثلاثة قرون يذكر الادريسى — الحديد — بين أهم السلع التى تصدرها الصين إلى العالم الإسلامى عن طريق عدن (٢) . ولذلك لانستبعد أن مصانع الحديد والسلاح فى دمشق والمدن الإسلامية الأخرى فى الشام وغيرها التى اشتهرت بصناعة السلاح كانت تستورد الخامة من الصين إلى جانب ما كان يستخرج من مناجم الحديد المعروفة فى العالم الإسلامى (٣) .

فاذا انتقلنا إلى الهند . وجدناها قد عرفت الحديد منذ أقدم العصور . والهند أولى بلدان العالم فى استغلاله للصناعة . وتكاد تتفق كلمة مؤرخى المعادن على أن الهند أقدم مواطن الحديد حتى قبل غزوة اسكندر المقدونى . وقد عرف الهنود الإفادة من هذا المعدن وبفضل مهارة صناعهم توصلوا إلى صناعةالصلب الذى تفوق على ما كان يصنعه غيرهم فى بلدان الشرق أو الغرب . ولا سيما فى صناعة النصال . وكانت تصدر الصلب إلى فارس القديمة .

---

(١) ابن المتوج : إيقاظ المتغفل ونقله عنه السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . ص ٤٤ مصر (طبعة حجر) .

Chan Ju-Ku : Cru-fan-Chi, trans. F. Hirth and W.W. Rockhill. St. Petersburg, 1911, p. 4, n. انظر أيضاً :

(٢) Jaubert, P.A. : Geographie d'Edrisi, Paris. 40, t. 1. p. 51. Paris 1836.

(٣) Huzagyin, S.A. : Arabia and the Far East. pp. 200. Cairo. 1942.

وجاء فيما ذكره ستسياس (Ctesias) المؤرخ القديم خبر سيفين فريدين صنعا من حديد الهند . أخذهما من ملك الفرس وأمه [1] .

وفى ملحمة الهندوس « ريجفيدا » التى كتبت منذ ثلاثة آلاف عام يشار إلى أن الإله إندرا (Indra) استعمل الحديد فى صناعة سلاحه ودرعه [2] .

ومما يؤيد وجود أنواع كثيرة من الحديد أنه يعرض إلى اليوم فى متحف التاريخ الطبيعى بكولومبو فى سيلان [3] مائتى وخمسين صنفاً من الحديد عرفت فى الهند منذ القدم . وأكثرها فى المدن البائدة فى سيلان وحدها . ويعود تاريخها إلى خمسمائة عام ق . م .

فلا غرو إذا وجد الحديد الهندى طريقاً ممهداً إلى أسواق العالم القديم ولا سيما فى أهم صناعة كانت تجتذبه إذ ذاك ... ألا وهى صناعة السلاح .

وقد جاء ذكر الحديد الهندى « Ferrum Indicum » بين السلع المتنوعة الواردة من الشرق التى تجبى عليها الضرائب فى قوانين ماركوس أوريلوس وكدمودوس .

ويبدو أن العصر الذهبى لصناعة الحديد فى الهند فى العصور الوسطى الأولى كان ما بين القرنين الخامس والسادس . فى تلك الحقبة بلغ الصناع أسمى المراتب فى فنهم لأنهم وجدوا الخامة المثلى كما أجادوا الأساليب الفنية لتحويلها ولتشكيلها حسب رغباتهم . والعامود الحديدى (L'at) فى دهلى بالقرب من قطب منار خير ما يؤيد علو منزلة هؤلاء الصناع الهنود [4] وهناك أعمدة أخرى أصغر منها فى نيودلهى وكلها لم تظهر عليها أية آثار للصدأ مما يؤكد مهارة الصناع فى الهند منذ ١٥٠٠ عام تقريباً [5] .

---

(١) Yule's Marco Polo, note, Vol. I, p. 88.

(٢) Goodale : Chronology of Iron and Steel p. 15.

(٣) Ibid, p. 23.

(٤) هذا العامود عبارة عن قطعة صلبة من الحديد المطاوع تزن حوالى ١٧ طناً وتشتمل على ثمانين قدماً مكعباً من المعدن . وقطر العامود حوالى ٤٢ سنتيمتراً ويصل فى القمة إلى ثلاثين سنتيمتراً . ويصل ارتفاعه إلى ١٥ متراً .

(٥) N.S. Krishnan: Indian Minerals Vol. VI. No. 3. pp. 114-115.

ظلت الهند مورداً لحاجيات الشرق من الحديد إلى العصور الوسطى. فقد اتفق معظم المؤرخين على أن النصال الدمشقية كانت تصنع من حديد مناجم كونا ساموندروم فى حيدراباد . وكان ينقله التجار الفرس إلى دمشق . وكان هؤلاء يعنون بانتقاء الخامة الجيدة ويغسلونها ويحمصونها أحياناً ثم يوقدون عليها بالفحم الخشبي فى أوان من الفخار وبعد وقت طويل يتركونها لتبرد ببطء وبعد ذلك تبدأ عملية الطرق والتسقية . الخ ليصنعوا منها خير النصال . وكانت الأخلاط التى يضعونها مع الحديد خالية من الكبريت والفوسفور وتحتوى على قليل من النحاس الأحمر (١).

وما حققه البيرونى الفيلسوف الذى تبحر فى علوم الهند لحد تمين .وأبحاثه عن الفولاذ وأصنافه لقيمة حقاً . وذكره لأنواع الحديد الذى تصنع منه السيوف والخناجر الجيدة وهو يؤكد أن الصنعة فى الهند قد فاقت جميع البلاد .

ولقد اتفق معه فى ذلك الادريسى الجغرافى (١١٠٠ — ١١٧٣ م) فقد قال عن الهنود أنهم يحسنون صنعة وتركيب أخلاط الأدوية التى يسبكون بها الحديد اللين فيعود هندياً منسوباً إلى الهند . وصناعهم يتفوقون فى إجادة طبع السيوف على غيرهم من الأمم . وكذلك الحديد السندى والسرنديبى والبيلمانى كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وإحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء . ويقول الأدريسى أنه لا يوجد شىء أمضى من الحديد لهندى وهو شىء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته (٢) .

وأثنى كثير من الرحالة الأوربيين على الحديد الهندى والنصال الهندية وكانوا يطلقون عليها ألفندى (Alfandi) وأليندى وأونديك (Ondique) ..الخ (٣) وكان هؤلاء الرحالة ومنهم ماركوبولو المشهور يطلقون هذه التسميات على الصلب الهندى (٤).

---

(١) Goodale: Chronology of Iron and steel. p. 26.

(٢) الأدريسى : نزهة المشتاق ص ١٠٨ — ١٠٩

(٣) Dozy and Engleman :2nd Edition. pp. 144-145. Hint of Al-Hind.
Jour. R.A.S. IX. p. 255.

(٤) ماركوبولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) رحالة بندقى رحل مع أبيه وعمه فى زيارة قوبلاى خان وقد أعجب هذا بماركو ثم كلفه بعدة مهام وتعلم عدة لغات ثم طاف ببلاد لم تطأها قدم أوربى من قبل واستغرقت أسفاره حوالى ٢٥ عاماً (١٢٧٠ — ١٢٩٥) أنظر أيضاً :
Maroc Polo: Vol. 1, p. 93. The granuls of Marco Polo: Broadway Travellers. Edited by Sir E.D. Ross. pp. 39, 48, 73.

وعلاوة على ذلك ما جاء فى قصائد العرب وملاحم الفرس ولا سيما فى شاهناما الفردوسى عن فضائل النصال الهندية التى احتلت مكانة سامية فى بلدان العالم الإسلامى فى خلال العصور الوسطى .

٢ — مراكز صناعة السيوف الاسلامية

(أ) شبه الجزيرة العربية :

تقابلنا اليمن كأهم موطن ازدهرت فيه صناعة السلاح منذ القدم فى الجزيرة العربية . ولا غرو فى ذلك فاليمن قريبة من سبل الملاحة كان يقصد مرافئها السفن المحملة بمتاجر الهند ومن سلعها الحديد الجيد الذى كانت تصنع منه السيوف والخوذات .

ويبدو أن السيوف اليمنية تضاءلت شهرتها بعد انتشار الدعوة الإسلامية فى الأقطار المجاورة . ولعل السبب يعود إلى سقوط مملكة حمير قبيل الإسلام ثم انضواء اليمن تحت أعلام الدين الجديد وازدهار صناعة السلاح فى بلاد الشرق الإسلامى التى فتحها العرب كإيران والشام .

وفى بلاد الغساسنة التى تقع شمال غربى شبه الجزيرة اشتهرت موّتة بطبع صنف ممتاز من السيوف عرف فى النصوص العربية بالسيوف المشرفية (١) ورد ذكرها فى شعر الجاهلية ، وقد قال عنها ضرار بن الأوزر :

ولو سئلت عنها جنوب لخبرت عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانهـــا ولاالنبل إلا المشرفى المصمم (٢)

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ١٥٨ — ١٦٠ . القاهرة عام ١٣٤٩ هـ .
والمشرفية هى السيوف المنسوبة إلى المشارف وهى من قرى العرب الدانية من الريف واحدها مشرف . ويوجد رأى آخر يقول بأن السيوف المشرفية تنسب إلى مشرف وهو سلاح من ثقيف .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٦ ص ١٩٣ . طبعة مصر .
عقرباء منزل من أرض اليمامة .

وفضلا عن ذلك فقد كان العرب فى الجاهلية يجلبون السيوف من سلاحيها بنواحى العراق والأبلة (١) .

(ب) ايران :

اشتهرت إيران منذ أقدم العصور بصناعة السيوف وكان ذلك قبل الفتح الإسلامى نقرأ عن ذلك فى فصل عقده الرحالة أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه بعنوان : « ذكر ما خص الله تعالى كل بلدة بشىء من الأمتعة دون غيرها » . قال (٢) :

« ... ولفارس فضل فى اتخاذ الآلات الطريفة المحكمة من الحديد . حتى لقد قال بعض الحكماء عندما وقف على أشياء طريفة عند بعض الملوك من آلات فارس : لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد . وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا . فهم أحذق الأمم بالأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن (٣) ... » .

ولقد توافرت لدينا الأدلة الكثيرة على ازدهار صناعة السلاح الإيرانية ولا سيما السيوف فى عدة مدن فى إيران الإسلامية . وسنذكر من أهمها :

شـــاهق :

ذكر البلخى من جغرافى القرن العاشر أن من حديد شاهق تصنع السيوف والنصال الأخرى . وكانوا يطلقون عليها النصال الشاهقية (٤) ، وقد أشار الفردوسى فى الشاهنامه إلى مضاء سيوف شاهق وجودتها فى منظوماته الخالدة .

---

(١) الأبلة بلدة على شاطىء دجلة البصرة وهى أقدم من تلك ،وقد وصفها ناصر خسرو وكانت فى القرن العاشر زاهية بها قصور وجوامع وفنادق . وقد درست ويحتمل أن تكون المحمرة قد قامت على أنقاضها .

أنظر أيضاً : Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate. p. 47.

(٢) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٢٥١ . ليدن عام ١٣٠٢ هـ .

(٣) الجوشن هو الدرع أو صدر الدرع وهو مثل الزرد. يتكون من حلقات متداخلة مثبتة على صفائح رقيقة من التنك (الصفيح السميك) .

(٤) Le Strange : Trans. Description of the Province of Fars in Persia. London. Asiatic Soc. Monographs. No. XIV, 1912, page 24.

كرمان :

ولم يفت ماركو بولو الرحالة البندقى (حوالى ١٢٥٤ — ١٣٢٤) الذى جاب أنحاء العالم الشرقى فى القرن الثالث عشر أن يذكر ملاحظاته عن صناعة السيوف فى كرمان التى كان يجيد أهلها صنعها مع السروج واللجم والمهاميز والقسى وجعبات السهام (١) .

وعلاوة على ما كان بالقرب من كرمان من مناجم الحديد . فقد كانت تستورد الصلب الهندى الجيد لاستعماله فى صناعة النصال البديعة .

وقد أشار باولوس جوفيوس (Paulus Jovius) إلى ما كان لكرمان من الصدارة فى إجادة صناعة السيوف وأسنة الرماح فى القرن السادس عشر وكان الترك يقبلون على شرائها بأثمان مرتفعة . كما أنها كانت مضرب الأمثال فى الجودة (٢) .

قم :

وذكر الرحالة أوليريوس (Olearius) فى وصف رحلته التى دون أخبارها فى منتصف القرن السابع عشر أنه تصنع فى قم أبدع النصال الإيرانية وقال له أهل البلدة أنهم يبيعون النصل الواحد منها بما يعادل ثمنه عشرين Sécus وذكر أوليريوس أيضاً أن الصناع يستوردون الصلب من بلدة ميريس التى تبعد عن أصفهان بمسير أربعة أيام . وتقع ميريس خلف جشد . وعلى مقربة من ميريس يرى جبل دماڤند حيث توجد مناجم الحديد الغنية والتى تصنع منها النصال الجيدة (٣) .

خراسان :

وقد تحدث الكونت فرييرسان بوف فى كتاب رحلته التى قام بها فى القرن الثامن عشر عن النصال النفيسة التى كانت تصنع فى خراسان . تلك

---

(١) Komroff : Ed. The Travels of Marco Polo. p. 42.

See also : The Book of Ser Marco Polo. Vol. 1. p. 92-93. Murray. 1921.

(٢) Yule: Marco Polo. History of his own times. Book XIV, Vol. 1. p. 89.

(٣) Olearius : Voyage ... fait en Moskovie, Tartari, et Persc. Leiden 1719. Vol. II. page. 681.

الصناعة التى أجادها سلاحو خراسان منذ نقل إليها تيمورلنك من دمشق جماعة من أمهر السلاحين (١) . ثم قال أن نيسابور اشتهرت بصناعة السلاح الأبيض منذ القرن العاشر . كما ذاع صيت قزوين فى ميدان إنتاج النصال الجيدة التى كانت تنافس بها نصال دمشق .

وفى الوقت الذى رحل فيه الكونت فريرلم يكن فى خراسان مناجم للحديد. إذ كانت تستمد الصلب من لاهور فى الهند .

وعلى كل حال فان شهرة إقليم خراسان وسيستان فى صناعة الألطاف المعدنية معروفة . ولاسيما فى الفترةالتى تقع بينالقرنين العاشر والرابع عشر، وظل إقليم خراسان فىطليعة أقاليم إيران فىصناعة السلاح إلى القرن التاسع عشر(٢).

قزوين :

وقد مدح الكونت فرييرسان بيف نصال قزوين المقدسة وفضلها على النصال الدمشقية من حيث الصنعة (٣) .

خوارزم :

واشتهرت خوارزم بصناعة السيوف والخوذ والقسى كما عرفت « شاش » إحدى مدن إقليم ما بين النهرين بسيوفها الجيدة (٤) وفى ذلك الاقليم اشتهرت ماراتمنده وميناك بالحديد الذى كان يصدر إلى خراسان وأفغانستان وبغداد (٥) اشتهرت شيراز كمركز لصناعة السلاح الجيد (٦) .

---

(١) Comte de Ferrières-Saineboeuf : Mémoires historique politiques et Geogr. 1782-89. Paris. Vol. II. p. 9.

(٢) Egerton of Tatton : Indian and Oriental Armour. p. 57. London. 1896.

(٣) أنظر أيضاً : Ibid. p. 44.

Le Strange : The Lands of Eastern Caliphate p. 429.

(٤) Ibid. page. 459.

(٥) الاصطخرى : مسالك البلدان ص ٣٣٦ و ٣٤٣ و ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٨
والمقدسى : ص ٢٧٨ وياقوت ج ٢ ص ٣٩٥ و ٤٢٥ .

(٦) Smith, Murdoch : Persian Art.

أصفهان :

ولا يفوتنا إغفال ذكر إصفهان الخراسانية ، تلك المدينة التى كانت حاضرة فارس القديمة قبل طهران ، والتى زاول فيها أسد الله أمير السلاحين الإيرانيين حرفته الجميلة فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشروبعده ابنه وتلامذته .

وواضح من وصف الرحالة الفرنسى جانشاردان (١٦٤٣ — ١٧١٣) —وقد زار إيران فى عصرهاالذهبى— إعجابه بالسيوف الفارسية[1] وقد أدهشته براعة الطباعين الإيرانيين ولا سيما فى صناعة السيوف والقسى .

ويرى بعض مؤرخى الفن الإسلامى أن « بلخ » مقر السامانيين كانت فى يوم من الأيام من أهم مراكز صناعة السلاح حيث توارث السلاحون أسرار فنهم جيلا بعد جيل .

وقد وصلت إلينا أسماء بعض السلاحين المشهورين فى إيران . وعلى رأسهم أسد الله الأصفهانى . والحديث عن السيف فى إيران فى أروع صوره لايستكمل إلا بذكر هذا الطباع الملهم الذى لا يعرف بالدقة تاريخ ميلاده أو وفاته . لكنه عاش فى أيام حكم الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ — ١٦٢٨) .

وانتساب أسد الله إلى أصفهان عاصمة إيران القديمة ليس دليلا على أنه أصفهانى المولد . والمؤكد أنه أقام فيها لماكان يزاول صناعته . فطبع عدداً كبيراً من النصال البديعة التى نقش عليها اسمه . وتحتفظ اليوم دور التحف فى القاهرة واستانبول وآثينا وطهران وموسكو وباريز وفيينا وبرلين ولندن ونيويورك ببعض أسيافه النادرة . وتلك تمتاز بصفاء نصالها وبهاء فرندها وخلوها من الزخارف والجواهر النفيسة . نقش عليها اسمه واسم صاحب السيف وآية من القرآن الكريم وغالباً ماكان يكتب اسم الشاه هكذا :

---

(١) Chardin: Voyage de M. et Le Chevalier Chardin en Perse et autres lieux de l'Orient . tome IV. p. 249.

أنظر أيضاً : Sir John Chardin : Travels in Persia. The Argonaut Press. London. 1927. p. 270-271.

« شاه عباس بنده ولايت » أى عباس عبد الله المختار

وقد أخذ الكثير من السلاحين فى إيران وغيرها بعد موت أسد الله فى نقش إسمه على نصالهم طمعاً فى الربح الوفير . ولاشك أن سيوفهم ليست فى المرتبة الفنية التى امتاز بها الصيقل الكبير . وقد اختلف أسلوب نقش أسمائهم عن أسلوبه . ومن اليسير على الخبير أن يميز بين نتاجهم ونتاج أسد الله . ولذلك لا غرو إذا شاهدنا بين مجموعات السيوف فى المتاحف الكبرى عدداً لايستهان به من تلك السيوف المقلدة التى لا تنسب إلى أسد الله ولأن معظمها مؤرخ بتاريخ متأخر كالقرن الثامن عشر مع أن أسد الله زاول مهنته بين أخريات القرن السادس عشر

وسنذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر بعض سيوف أسد الله . ففى متحف مجموعة والاس (Wallace Collection) فى لندن سيفان قبيعاتها على شكل رءوس حيوانات وهى مطعمة بالميناء ولها حد واحد ونقش على نصالها اسم أسد الله مكفتاً بالذهب يتلوه كلمة « بدوح » . ذلك الطلسم الذى ينقش كثيراً على النصال الفارسية التى تنسب إلى ذلك العصر وعلاوة على هذين السيفين ففى متحف والاس عدد من سيوف أسد الله [1] .

ومن بين الطباعين الإيرانيين المشهورين « قلب على » ابن أسد الله . وقد عاش فى أصفهان مع أبيه . ولقلب على أربعة سيوف بديعة فى مجموعة متحف والاس [2] وعدة أسياف فى مجموعة موزر (Moser) فى المتحف التاريخى ببرن

ونذكر أيضاً الطباع محمد زمان الأصفهانى تلميذ أسد الله [3] وله سيفان تضمهما مجموعة متحف والاس (رقما ١٧٦٢ و ١٩٠٤) .

وصادق الطّباع الذى يقرأ اسمه على سيف نقش عليه اسم الشاه اسماعيل الصفوى (١٥٠٢ — ١٥٢٤) .

---

(١) أرقام هذه السيوف هى على التوالى : ١٣٩٨ و ١٤٠٢ و ١٤٠٧ و ١٤٣٩ و ١٤٤٣ و ١٥٤٠ و ١٦٢٨ و ١٧٥٨ و ١٩٩٥ و ١٩٩٦ وبعضها مزيف .

(٢) أرقامها ١٩٣٥ و ١٩٩٠ و ١٤٠٠ و ١٦٢٩) .

(٣) Egerton of Tatton : Indian Arms and Armour. p. 53.

وإبراهيم المشهدى (نسبة إلى مشهد) ابن محمد رضا . وقد وجد اسمه منقوشاً على خوذة تحمل شعار الشاه طهمسب (١٥٢٣ — ١٥٧٥) فى متحف استانبول .

وعلى القزوينى الذى عرفت نصاله فى أواخر القرن السادس عشروأوائل السابع عشر [١] . ومختار الأصفهانى ومحمد تقى الدين الأصفهانى والطباع فتح على الشيرازى (القرن ١٧) وله سيف من صنعته فى متحف وإلاس (رقم ١٨٧١) .

وأكبر بن مولا صادق الأصفهانى (أواخر القرن ١٧) وأحمد أزانى وله سيف، فى متحف متروبوليتان نقش على نصله اسم ولقب السلطان أكبر إمبراطور الهند (١٥٥٦ — ١٦٠٥) وعلى أكبر أردلانى ويرى اسمه منقوشاً على نصل مدية جميلة فى متحف متروبوليتان للفنون [٢] وعلى محمد الشيرازى ومحمد رضا راقمى [٣] والأستاذ اسماعيل وزميله على أكبر المذكور عاشا فى أيام الشاه ناصر الدين .

(ج) الشام ومصر :

اشتهر كثير من مدن الشام منذ عرف التاريخ فى صناعة طرق المعادن وذلك لوجود الحديد الصالح فى بعض جبال لبنان وشمال الشام فى الفرزل ودوما والشوير ومشفرة ومن جوار دمشق ومن مشارف حوران والقلمون [٤] .

وقد اشتهر فى الجاهلية سيوف مشارف الشام فى أقصى تخوم الجنوب . كما نسبت السيوف الجيدة إلى دياف وإلى بصرى . وكلتاهما فى إقليم حوران . فقيل السيوف البصرية [٥] .

---

(١) Sammlung F. Sarre : Erzeugnesse. p. 81 .

(٢) Bulletin of Metropolitan Museum of Arts. March 1937.

(٣) B.W. Robinson : The sword of Islam. Apollo Annual. 1949.

(٤) عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ص ٢٨٨ . محاضرات المجمع العلمى العربى عام ١٩٢٥ .

(٥) يقول عنها الحصين بن الحمام المرى الشاعر :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ومطردا من نسج داود محكما

أما دمشق فقد اشتهرت منذ العصور الرومانية بصناعة السيوف الجيدة وحافظت على شهرتها بعد الإسلام . وكان يرد إليها الفولاذ الهندى الذى يحتوى على قليل من الألومين والسلكا لتطبع منه النصال التى اشتهرت بشدة صلابتها ومرونتها وفرندها البديع الرسم . وقد عرف الجوهر الدمشقى بالحناوى أو الحنون.

وكانت تصنع السيوف أيضاً فى زحلة والشوير ودومة من لبنان . وقد حافظت دمشق على شهرتها الرفيعة فى صناعة السيوف إلى أن فتحها تيمورلنك عام ١٤٠٠ م فأمن أهلها وقبل ما قدموه من الهدايا النفيسة ثم نكث بعهده وسمح لرجاله بنهب المدينة . فعاثوا فيها وأضرموا النار فى أرجائها وبعد أيام رحل تيمور عنها وقد أجلى معه بعض الأعيان وأصحاب الفضل وكل ماهر فى فنه من النساجين والخياطين والطباعين الذين اشتهرت بهم دمشق (١) .

وقيل أنه بلغ عدد هؤلاء مائة وخمسين ألفاً نقلهم إلى سمرقند ، كما شيد الصياقلة فى خراسان مصانع السلاح التى اشتهرت فيما بعد بتحفها الرائعة (٢) .

وبرحيل الصناع الحاذقين عمل من بقى بعدهم على التقليد . وكانت صناعتهم تزداد سوءاً بتوالى الزمن . ذلك لأن السلاحين كانوا يحتفظون بأسرار صناعتهم ولا يورثونها إلا أبنائهم .

وارتكب سليم الأول عقب استيلائه على دمشق فعلة تيمور فاقتصرت مهمة الطباع الدمشقى منذ القرن السادس عشر على إنتاج السيوف والخناجر العادية . وفى قليل من الأحيان النادرة كانت تستورد نصالها من الخارج وأغرقت بها أسواق الشام والحجاز ومصر . ومع ما أصيبت به صناعة السلاح الدمشقية من أضرار فادحة . يظن أنها نجحت فى أبعاد النصال الفارسية عن أسواق الشرق الأدنى حتى أنه حوالى عام ١٥٥٠ كانت النصال الخراسانية تصل إلى الغرب عن طريق البندقية واليونان فحسب .

---

(١) نعمان قسطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء . ص ١٢٢ بيروت – ١٨٧٩ .

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : محاضرات المجمع العلمى العربى فى دمشق . ج ١ ص ٢٨٧ عام ١٩٢٥ .

وقد اشتهر فى دمشق أسرات كثيرة من الطباعين منهم : بنو السيوفى من مسلمين ومسيحيين وآل بولاد وجوهر وجوهرى ومسابكى وصيقلى وحداد ونحاس وحفار وطباع .

ونعتقد أن الشهرة الفائقة التى لحقت دمشق كمركز لصناعة السيوف البديعة كان مبالغاً فيها كثيراً . وأهم الأدلة التى تؤيد ما نذهب إليه . أنه لم يصل إلينا سيف واحد صنعه طباع دمشق بلغ فى شهرته ما وصل إليه أسد الله الأصفهانى وغيره من صناع السيوف الإيرانيين والترك .

وكانت السيوف الجيدة ذات الجوهر البديع تصنع إلى ما قبل الفتح العثمانى لمصر خارج الشام ولا سيما فى إيران والهند (١) .

وليس معنى هذا ان دمشق لم تطبع فيها السيوف قط . بل إنما كانت تنتج أسيافاً عادية تسد بها حاجيات الشام وربما بقية أجزاء الامبراطورية المملوكية .

والصناعة التى اشتهرت بها دمشق حقاً وخلدت لها الصنعة الدمشقية هى فن تكفيت المعادن وتطبيقه بالذهب والفضة . ذلك الفن الجميل الذى امتازت به وغمرت منتجاته بلدان العالم الإسلامى بل وبعض المدن المسيحية فى الغرب المعاصر

(د) تركيا :

وقد عرف عن الترك أنهم صناع مهرة فى عمل السلاح . ولا غرو فقد استنبطوا الحديد الخام من مناجم « ألطاى » القديمة . وكان الطباعون الترك يصنعون السلاح لشعب الأبر (Avars) الذى ساد الأقاليم الشرقية فى أوربا إلى سهول المجر حتى زالت دولتهم .

وعندما استقر الترك فى أوربا تركزت فى القسطنطينية صناعة السلاح . وكانت بروسه قد اشتهرت بصقل السيوف وطبعها كما عرفت أزمير .

ويمكن القول أنه فى خلال القرنين ١٦و١٧ بلغت صناعة السلاح فى تركيا أوج قمتها وبلغ طباعوها درجة فى الإبداع يحسدون عليها (٢) .

---

(١) Mayer : Mamluk Costume. p. 44-45.

(٢) O. Sermed Mukhtar : Guide Musée militaire Vol. p. 70- 2.71.

وممن برعوا فى صناعة السيوف التركية ــ الأوسطى سنان وقيل أنه صنع سيفاً كان يطوى نصله كالنطاق (الحزام) وكان مع مرونته سريع الاعتدال من تلقاء نفسه . ومن بين أسياف سنان سيف صنعه للسلطان سليمان بن سليم الأول (حوالى عام ١٥٤٤ م) نقش على نصله :

« هذا حسام معتبر ــ حرز سلطان البشر ــ السلطان سليمان بن سليم . الله يعطيه الظفر » .

ونقش على الجانب الآخر للنصل« فى دار الفتح بقسطنطينية . سنة ٩٤٠هـ» وفى عصر السلطان محمود (١٧٣٠ ــ ١٧٦٤) اشتهر الطباع « عجم أوغلو » ويقال أنه تدهورت بعده صناعة السيوف فى تركيا .

ولا يخفى أن مثل تلك الصناعة الهامة الدقيقة أى صناعة طبع السيوف الجيدة وصقلها لا تتوقف أهميتها فقط على جودة المعدن الذى تصنع منه . ولكن الأهم من ذلك هو دربة الصناع الفنيين الفائقة وخبرة هؤلاء ومهارتهم أجيالا متعاقبة . وبمعنى آخر استقرار هذه الصناعة بين أقوام تتولد وتربى فيهم روح الصناعة الدقيقة . ومثل هذا التفوق لا يتحقق بين الشعوب البدائية أو الأقوام الرحل بل لدى الأمم المستقرة المتحضرة حيث يتوارث ويجيد أهل كل حرفة حرفتهم ويعملون دواماً على تقدمها .

عبد الرحمن زكى